

الفصل الثالث

جوانب جمال الدين الأفغاني

١ - نظرة عامة

إن من يدرس تاريخ السيد جمال الدين حقّ الدرس - من يوم أن أتمّ تعليمه في شبابه ، إلى أن لقي مصرعه في الأستانة بكيد أعدائه - يتبين له في جلاء ووضوح جوانب حياته ومدى جهاده في سبيل الإصلاح والتحرر .

ذلك أنه عندما بلغ أشده واستوى علماً ورشداً ، وهياً للعمل في الحياة بما تواتيه به طبيعته ومواهبه ، سافر إلى البلاد الحجازية ليؤدى فريضة الحج كما رأينا ولم يفعل كما يفعل غيره فينقلب بعد حجه إلى بلاده ، وإنما رأى قبل أن يصل إلى مكة أن يسيح بين البلاد العربية كلها ليدرس أحوالها ويختبر ما كان عليه أهلها في عقائدهم وأخلاقهم وعاداتهم ، وكأنه يريد بهذه الدراسة أن يضيف إلى ما درس من علم مادة جديدة تعينه على ما يريد أن يضطلع به من جهاد في سبيل هذه البلاد فقضى في سياحته أكثر من عام ، وقد خرج من هذه السياحة بعد أن أصاب منها فوائد غزيرة ومنافع جزيلة .

وبعد حجه عاد إلى بلاده ، وانتظم في خدمة الأمير « دوست خان » وشهد بنفسه مع جيش هذا الأمير الحرب التي قامت لفتح « هراة » وبعد أن توفي الأمير « دوست خان » تولى منصب الوزير الأول للأمير « محمد أعظم خان » وخاض معه الحروب التي نشبت بينه وبين أخيه الأصغر « شير علي » وهي الحروب التي عضد فيها الإنجليز شير علي هذا بلسانهم ، وقناطير الذهب التي بذلوها من أموالهم لتفرّق على الرؤساء العاملين مع « محمد أعظم » فينصرفوا عنه .

وفي هذه الحروب تجلت بطولة السيد جمال الدين وشجاعته وقد كان — كما قال جورجى كوتشى فى وصفه — : «ولقد استرعى الأنظار منذ حدثاته سنة بذكائه النادر ، وميله الواضح إلى كل ما له صلة بالفنون الحربية » .

والنشأة الحربية — كما لا يخفى — تبعث فى نفس صاحبها الشجاعة والبطولة وتدفعها إلى اقتحام المخاطر وملاقاة الصعاب بغير ما خوف ولا وجل ، وما لا ريب فيه أن الشجاعة كانت من الصفات العليا التى امتاز بها جمال الدين فى حياته كلها .

ولما انتهت هذه الحرب بهزيمة « محمد أعظم » وفراره إلى بلاد إيران بقى السيد فى بلاده بعد هذه الهزيمة عزيزاً لم يستسلم ولم يخضع وظل مرفوع الرأس ، لا يميل ولا يلين ، ولم يستطع شير على — وهو المنتصر فى الحرب التى كان السيد وزير الحرب لعدوه — أن يمس السيد بسوء وذلك لعظم مكانته وخشية أن يخرج الناس عليه ، ويبطشوا به .

ثم أراد السيد أن يذهب إلى الحج مرة ثانية فأذن له على أن يكون فى طريق الهند . وما كاد يصل إلى تخوم هذه البلاد حتى قوبل من حكومتها بالحفاوة البالغة ، ولكنها تخوفها منه أمرته أن لا يطيل المقام فى هذه البلاد ، وأن لا يجتمع بأحد من علمائها إلا على عين من رجالها .

وبعد أقل من شهر سيرته الحكومة إلى السويس وسافر منها إلى القاهرة ولكنه لم يلبث فيها إلا شهراً وبعض شهر .

ثم تحول إلى الأستانة وهناك لقي من كيد رجال الدين وسعايتهم لدى السلطان عبد الحميد ما جعله يبارح الأستانة مرغماً فعاد إلى مصر .

ولما رغبوا إليه أن يقيم بها ، كان أول شىء أراد أن يعمل ، وهو عالم مسلم عظيم ، أن يتصل بالأزهر ، وهو المعهد الدينى الكبير الذى يضم طلاباً من أكثر بقاع الأرض ، لكى يلتقى فيه من علمه ، وييندر فى أرضه ، من بذور إصلاحه ، ولكن شيوخ الأزهر وقفوا بجمودهم فى وجهه ، فلم يمكنوه من الوصول إلى غرضه ، وقد ذكر تلميذه النجيب أديب إسحاق أنه جرت بينه وبين علماء الأزهر مناظرة

أفضت إلى المنافرة فانقطع إلى منزله بلى في دروسه .

وبدت من السيد نظرة إلى الناحية الاجتماعية فرأى ظلم الحاكمين وجورهم الذى توارثته البلاد منذ أجيال ، فقد ازداد طغياناً في عهد إسماعيل حتى أصبح الناس فيه ، كما صنفهم الأستاذ الإمام « عبيداً أى عبيد » .

ثم التفت إلى نظام الحكم فوجده حكماً استبدادياً غاشماً لا ينفذ فيه إلا إرادة الحاكم ومشيته ، وأن مجلس شورى النواب الذى ابتدعه إسماعيل لم يكن إلا مجلساً صورياً ليس له أن يقضى فى أمر إلا بأمر إسماعيل وليس من حقه أن يسير على قواعد الشورى المتبعة فى سائر مجالس النواب .

وبذلك تشعبت أمام السيد سبل الإصلاح وتعددت وجوهه ، وكان عليه أن يجاهد فى ميادينها جميعاً ، فأخذ يعمل على الإصلاح الدينى بمحاربة الخرافات والأوهام التى غشيت الدين ، وذلك لكى يعيده إلى طهارته الأولى وفى ذلك يقول تلميذه الأكبر الأستاذ الإمام محمد عبده :

« لقد وجه عنايته لحل عقل الأوهام عن قوائم العقول ، فنشطت لذلك الأبواب واستضاءت بصائر » .

ولم يقف جهاده الدينى بل أخذ كذلك يكافح الجمود الفكرى والتقليد الأعمى الذى جعلوه (واجباً) لا بد من اتباعه وقد ربطوا هذا الوجوب بيت من شعرهم هو هذا :

وواجب تقليد خبر منهمو كذا حكى القوم بلفظ يفهم

والمقصود بهؤلاء الأخبار هم : أبوحنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل فلا يصح لأحد أن يقلد غيرهم .

ولما قرأ السيد فى دروسه كتب الفلسفة ، وكانت قراءة الفلسفة محرمة فى الأزهر ، ومن ينظر فيها يكن زنديقاً كافراً كما قضى بذلك شاعرهم فى قوله :

ومن يقل بالطبع أو بالعلة فذاك كفر عند أهل الملة

فهاج شيوخ الأزهر على السيد ورموه هو وتلاه بذه بالكفر ، ولكنه لم يلتق بالألهم وظل فى طريقه لا يدع فرصة سواء كان ذلك بالقول أو بالكتابة إلا بث آراءه

الحرة فيها لتلاميذه وكان كما صرح بذلك تلميذه الأكبر الأستاذ الإمام محمد عبده إذ قال :

« إنه كان لا يسأم من الكلام فيما ينير العقل ويظهر العقيدة ، أو يذهب بالنفس إلى معالي الأمور ، أو يستلفت الفكر إلى النظر في الشئون العامة مما يمس مصلحة البلاد وسكانها ، فاستيقظت مشاعر وانتهت عقول ، وخف حجاب الغفلة في أطراف متعددة في البلاد خصوصاً في القاهرة » .

وقد نفذت أفكاره وآراؤه إلى مجلس النواب على لسان كبار تلاميذه في مثل النائب الجريء عبد السلام المويلحي (باشا) الذي كان يهز أعواد منبره هزاً مما لم نعهد مثله في تلك الأزمان . .

ولما أثمرت تعاليمه التي كان يبثها لتطهير العقائد وتحرير الأفكار وتبصير الناس بما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات وعظم نفوذ السيد في البلاد وأقبلت عليه الوجوه ، وانصرفت إليه الأذهان ، شق ذلك على أعدائه فلم يدعوه يسير في طريقه لكي ينشر دعوته ويتم رسالته فأرصدوا له الكيد والبغى وثار عليه الحرب من كل ناحية .

فقام رجال الدين من ناحية يرمونه بالكفر والزندقة ونفذوا بسعاياتهم إلى الخديو توفيق فما لبث بعد أن وثق به وقال له : إنك أنت موضع أمل في البلاد . أن نكث معه عهدته وأخلف وعنده وقد انتهز سفير إنجلترا هذه الفرصة فأوغر صدر توفيق على السيد وقال له : إنه يريد لها جمهورية ونخشى هذا الوزير أن يقضى السيد — وهو عدو الإنجليز اللدود بتعاليمه على آمال إنجلترا في احتلال مصر لكي تقبض على مفتاح الهند التي كانت يومئذ أعظم درة في التاج البريطاني — وبهذا الكيد الذي جاءه من هذه النواحي الثلاث أصدر توفيق أمرة بنى السيد إلى الهند — ليقم بجيدر آباد ولم تدعه إنجلترا يهدأ في هذا المنفى ، بل أمرت بنقله إلى كلكتا عندما قامت الثورة العرابية لأنها كانت تعتقد أن هذه الثورة قد شبت من تعاليم جمال الدين .

هذا كان أمر السيد بالقاهرة وقد علمت من قبل ما لقيه في الأستانة في المرة الأولى من سفره إليها ، وكيف كاد له شيخ الإسلام وأعوانه حتى خرج منها مرغماً ، وكيف ختم تاريخه بتلك المأساة الفظيعة بالأستانة في المرة الثانية عندما احتال عليه السلطان عبد الحميد بوساطة الدجال أبو الهدى الصيادى فى أن يزوره فقبل السيد بحسن ظنه ولكن السلطان حبسه فى قفص من الذهب لكى يتمكن أعداؤه من رجال الدين الدجالين من أن يأتمروا به وأن يلقى حتفه على أيديهم .
ولا ننسى ما فعله شاه العجم ناصر الدين معه فقد توسل إلى السيد لكى يذهب معه إلى بلاده وما كاد السيد يصل إلى فارس ويرى الشاه مبلغ حفاوة الناس به وما تبين له من آرائه التى كلفه بوضعها لإصلاح البلاد من أنها تحدد من سلطانه حتى تنكر له وغدر به فنفاه من بلاده .

فأنت ترى مما قصصناه عليك من جملة تاريخ السيد جمال الدين أنه عاش حياته كلها بين الننى والطرود والاضطهاد والتشريد ثم انتهى أجله بما يشبه القتل كما حقق ذلك المؤرخون .

٢ - دعوة شاملة

مما لا خلاف فيه أن دعوة جمال الدين الإصلاحية إنما كانت دعوة عامة ليست خاصة بأمة من الأمم ولا شعب من الشعوب فقد ترك فى كل الممالك الشرقية ، وما اتصل بها من الأمم الأوروبية أثراً ، وبذر فى كل أرض بذرأ .
أخذ منذ صدر شبابه يسيح بين بلاد العرب وسافر إلى الهند ومصر وتركيا وأوروبا وروسيا ولم يتعلق قلبه ببلد من البلاد على أنه وطن خاص له ، ولم يجعل من مذهبه الاجتماعى فكرة الوطنية بمعناها المعروف التى تجعل صاحبها يتعصب لها ويقف جهوده عليها ، بل جعل الشرق كله وطناً له ، يعمل دائماً لخلاصه من سلطة الأجنبي ، ومن الحكم الاستبدادى وهما محورا جهاده فى حياته ، وتطهير عقائده من الخرافات وتحريك أفكاره من الجمود . ومن أجل ذلك قال كلمته المشهورة :
الشرق! الشرق! لقد خصصت جهاز دماغى ، لتشخيص دائه ، وتحرى دوائه .

قال برنارميشيل^(١) : «أيان ذهب جمال الدين كان يترك وراءه ثورة تغلبي
مراجلتها ولسنا نعدو الحق ، أو نكون مبالغين إذ قررنا أن جميع الحركات الوطنية
الحرّة ، وحركات الانتفاض على المشاريع الأوروبية التي نشاهدتها في الشرق ترد
أصولها مباشرة إلى دعوته . »

وقال لوثرروب :

« لقد عمت جهود هذا الرجل النابه البلاد الإسلامية كلها ، والممالك
الأوروبية ذات الصلات بها فأفغانستان وفارس وتركيا ومصر والهند ، اتصلت به
جميعاً وأحست بأثره القوى الذي هزها هزاً عنيفاً .

فهو الذي أوحى بالثورة الفارسية التي بدأت بالهياج ضد احتكار التبّاك في
سنة ١٨٩١ م وانتهت بوضع دستور ٥ أغسطس سنة ١٩٠٦ تمهدها في نشأتها
الأولى بالنصح والإرشاد ثم والاها بالتشجيع والتأييد .

وقال الأستاذ براون^(٢) : إن استيفاء النظر في تاريخ السيد جمال الدين هو
إحاطته بتاريخ المسألة الشرقية كلها في الأزمان الحديثة ، يدخل في ذلك تاريخ
الأفغان والهند ويدخل فيها بوجه خاص تاريخ تركيا ومصر وإيران ، ومن هذه البلاد
الإسلامية الأخيرة لا يزال تأثيره حياً .

١ - جهاده في الهند

عندما ألم السيد ببلاد الهند ، وأرغمته الحكومة على مغادرتها ، كما علمت من
قبل حتى لا يشعل عليها نار الثورة ويجعلها عايمهم جميعاً ، لم يدع هذه البلاد بغير
أن يبذر فيها بذور الثورة ، ولقد كان مما قاله لأهل الهند عندما فارقتهم ، وكانوا
يبكون لفراقه !

« يا أهل الهند وعز الحق وسر العدل ، لو كنتم ، وأنتم تعدون بمئات من
الملايين « ذباباً » مع حاميتكم البريطانيين ، ومن استخدمتهم من أبنائكم فحملتهم

(١) ص ١٤ الإسلام والتجديد .

(٢) ص ١٤ العروة الوثقى .

سلاحها لقتل استقلالكم واستنفاد ثروتكم ، وهم بمجموعهم لا يتجاوزون عشرات الآلاف ، لو كنتم أنتم مئات الملايين كما قلت « ذباباً » لكان طنينكم يصم آذان بريطانيا العظمى ويجعل في آذان كبيرهم مستر غلادستون وقرأ ، ولو كنتم وأنتم مئات الملايين من الهنود وقد مسخكم الله فجعل كلا منكم سلحفاة ، وخصتم البحر ، وأحطتم بجزيرة بريطانيا العظمى لجرتموها إلى القعر وعدتم إلى الهند أحراراً .

ولما أتم كلامه ذرف الحاضرون الدموع ، فصاح فيهم بصوت عال صيحة قال فيها : « اعلّموا أن البكاء للنساء ! والسلطان محمد الغزنوي ما أتى الهند باكيًا بل شاكا السلاح ، ولا حياة لقوم لا يستقبلون الموت في سبيل الاستقلال بشعر باسم » .

على أنه لم يكتب بهذه الصيحة التي تحيي الجهاد ، وتبث روح الاستقلال وتحطم قيود الاستعباد ، بل كان لا يفتأ يغذى ذلك الروح بالكتابة وتأمين الأفكار لمن كان يلقاهم من رجال الهند بمصر وأوروبا . ولقد كان موقناً باستقلال الهند من بعده فقد قال للشيخ عبد الرشيد التتارى : يا ولد : إنك ستصلى صلاة الجنّاة على القيصرية الروسية ، وستحضر تشييع جنازة الإمبراطورية الإنجليزية في الهند وقد تمت البشارتان معاً .

ب - جهاده في إيران

وقد جاهد كثيراً في إيران وقد قال لوثروب في الصفحة الماضية إنه هو الذى أوحى بالثورة الفارسية التي بدأت بالهياج ضد احتكار التبّاك في سنة ١٨٩١ وانتهت بوضع دستور ٥ أغسطس سنة ١٩٠٥ أما قصة التبّاك هذه فهي أن حكومة فارس أعطت حق احتكار التبّاك وهو هناك بمنزلة القطن في مصر إلى شركة إنجليزية ولم يكده السيد يعلم بذلك حتى أرسل خطاباً حاراً إلى رئيس المجتهدين في إيران يندد على الحكومة لارتكابها هذه الخيانة الضارة بثروة البلاد فلما لبث رئيس المجتهدين حتى أصدر فتوى بتحريم شرب التبّاك وبيعه في البلاد

حتى إن الشاه نفسه لم يجد (الزجيلة) التي كانت تقدم له في الصباح ، فاضطرت الحكومة إلى العدول عن هذه الاتفاقية لقاء نصف مليون جنيه أعطتها للشركة ، وكان من آثار ثورة فارس أن أطاحت برأس الشاه ناصر الدين وقال ضاربه عندما أنفذ فيه خنجره ! خذها من يد جمال الدين .

ج - أثره في تركيا

قال مستر بلانت الأيرلندي الحر : « إن سعى العثمانيين في تحويل حكومتهم إلى دستورية في بادئ الأمر قد ينسب إلى شيء من آثار جمال الدين ؛ فقد أقام في عاصمتهم يحاورهم ويخطب فيهم .

« وقد ثبت أنه اجتمع ببعض رجال (تركيا الفتاة) وهم الذين قاموا بالانقلاب التركي وعرف منهم خطتهم فجمعهم ودعا لهم بالتأييد .

وظلت جمعية تركيا الفتاة تجاهد حتى قامت بثورتها الكبرى سنة ١٩٠٨ فذهبت عاصفتها بصرح الاستبداد .

وقال لوثروب : « ولا كان مقبياً بالأستانة ، مهد بتهيجه المتواصل للحركة التركية الصغيرة الموقفة التي قامت سنة ١٩٠٨ » .

وقال : « إنه استطاع أن يحدث في الأوساط العلمية تأثيراً بعيداً بما أتى من دروس ومحاضرات في الجامعة المنشأة حديثاً بتركيا » .

د - أثره في روسيا

قضى السيد ببلاد روسية أكثر من أربع سنين ييث فيها آراءه الحرة الجريئة . وزار عواصمها وكان القيصر في أول أمره حفيظاً به معظماً له مصغياً إلى ما يقوله إلى أن سأله مرة عن سبب خلافه مع شاه فارس فأجابه السيد : سبب الخلاف ! الحكومة الثورية ، وضرورة اتباعها وأن الشاه ينفر من ذلك ، ولا يجب أن يعترف به ، فقال القيصر ؛ : إني أرى الحق في جانب الشاه ! إذ كيف يرضى ملك من الملوك أن يتحكم فيه فلاحو مملكته ؟ فأجاب جمال الدين في جرأة وفصاحة : أعتقد يا جلالة القيصر ، أن عرش الملك -- إذا كانت الملايين من الرعية أصدقاء

له - خيراً له من أن تكون أعداء له يترقبون الفرص ويكتمون في الصلور وسوم الحقد ونيران الانتقام ! « فَعَلَّتْ - عند ذلك - وجه القيصر علامة الغضب فقطب حاجبه ! ولم يطل الحديث مع السيد ! وودعه بغير الصورة التي استقبله بها إذ كان وداعاً فاتراً ، ثم أوعز القيصر إلى أكبر رجال بلاطه أن يسرعوا متلفين إلى إخراجهم من روسيا .

ومن جهاد السيد ضد القيصرية أنه كان متصلاً بحركة التحرير التي كانت ضد القيصر ، وفي مرة حمل تلميذه عبد الرشيد التتاري تقريراً منه إلى جمعية سياسية سرية في عاصمة روسيا رئيسها عم القيصر وقال له : اذهب بهذه الرسالة وأوصلها إلى الغرنديق فلان ، واعلم أنك إما أن تقتل ، وإما أن تفوز وتغنم ، فأوصلها الشيخ عبد الرشيد ، فقام لها الغرنديق وقعد ، ثم أعاده بها إلى بلاد اليونان ليطبعاها باللغة الروسية ، ويرسلها إليه ، وعرض عليه من المال ما يشاء فلم يأخذ إلا القدر الضروري ولقي أهوالاً كادت تذهب بحياته .

وقد علمت من قبل ما قاله للشيخ عبد الرشيد من أنه سيصلي صلاة الجنائز على القيصرية الروسية ، وسيحضر تشييع جنازة الإمبراطورية الإنجليزية في الهند وقد تمت البشارة الأولى في سنة ١٩١٧ بالقضاء على القيصرية ، وتمت البشارة الثانية في سنة ١٩٤٧ بخروج الإنجليز من الهند .

ه - أثره في مصر

مما لا ريب فيه أن جل أعمال السيد جمال الدين العظيمة إما كان بمصر وذلك بأنه قد قضى فيها من الزمن ما لم يقض مثله في غيرها فقد لبث فيها ثمانية أعوام كاملة يجاهد من أجلها بلسانه وقلمه : في خطب ودروس يلقيها ، وأحاديث يبثها ، ومقالات يكتبها في صحفه وغير صحفه ، ولكي يقف القارئ على شيء من ذلك ننقل ما قاله في ذلك تلميذه الأكبر الأستاذ الإمام محمد عبده :

« مال السيد جمال الدين إلى مصر ^(١) على قصد التفرج بما يراه من مناظرها

(١) جاء السيد إلى مصر في المرة الثانية يوم أول محرم سنة ١٢٨٨ هـ وهو يوافق ٢٣ مارس

ومظاهرها ، ولم تكن له عزيمة على الإقامة بها . حتى لاقى صاحب الدولة رياض (باشا) فاسمآلته مساعيه إلى المقام ، وأجرت عليه الحكومة وظيفة ألف قرش مصرى . . . كل شهر نزلًا أكرمه به لا فى مقابلة عمل ، واهتدى إليه بعد الإقامة كثير من طلبة العلم ، واستوروا زنده فأورى ، واستفاضوا بحره ففاض درأً وحملوه على تدريس الكتب فقرأ من الكتب العالية فى فنون الكلام الأعلى والحكمة النظرية ، طبيعية وعقلية ، وفى علم الهيئة الفلكية وعلم التصوف وعلم أصول الفقه الإسلامى ، وكانت مدرسته بيته من أول ما ابتدأ إلى آخر ما اختتم ، ولم يذهب إلى الأزهر مدرسًا ، وإنما كان يذهب إليه زائرًا ، وأغلب ما كان يزوره يوم الجمعة . عظم أمر الرجل فى نفوس طلاب العلوم ، واستجزلوا فوائده الأخذ عنه ، وأعجبوا بدينه وأدبه ، وانطلقت الألسن بالثناء عليه ، وانتشر صيته فى الديار المصرية .

ثم وجه عنايته لحل عقل الأوهام عن قوائم العقول فنشطت لذلك أبواب واستضاءت بصائر ، وحمل تلامذته على العمل فى الكتابة وإنشاء الفصول الأدبية والحكمية والدينية فاشتغلوا على نظره ، وبرعوا - وتقدم فن الكتابة فى مصر بسعيه وكان أرباب القلم فى الديار المصرية القادرون على الإجابة فى المواضيع المختلفة منحصرين فى عدد قليل . . .

ومن عشر سنوات^(١) ترى كتبة فى القطر المصرى لا يشق غبارهم ، ولا يوطأ مضارهم ، وأغلبهم أحداث فى السن شيوخ فى الصناعة ، وما منهم إلا من أخذ عنه ، أو عن أحد تلامذته ، أو قلد المتصلين به ، ومنكر ذلك مكابر ، وللحق مدابر .

هذا ما حسده عليه أقوام^(٢) واتخذوا سبيلا للطنع عليه من قراءته بعض

(١) كتبت هذه الكلمة فى سنة ١٨٨٥ .

(٢) هؤلاء الأقوام هم بعض شيوخ الدين الذين قال فيهم الأستاذ الإمام عند احتضاره رضى

الكتب الفلسفية أخذاً بقول جماعة من المتأخرين في تحريم النظر فيها . ويمكن الحاسدون من نسبة ما أودعته كتب الفلاسفة إلى رأى هذا الرجل وأذاعوا ذلك بين العامة ثم أيدهم أخلاط من الناس من مذاهب مختلفة كانوا يطرقون مجالسه فيسمعون ما لا يفهمون ! ثم يحرفون في النقل عنه ولا يشعرون ، غير أن هذا كله لم يؤثر في مقام الرجل من نفوس العقلاء العارفين بحاله ، ولم يزل شأنه في ارتفاع ، والقلوب عليه في اجتماع ، إلى أن تولى خديو مصر توفيق (باشا) ... فأصدر أمره بإخراجه من القطر المصرى . هو وتابعه أبو تراب ففارق مصر إلى البلاد الهندية سنة ١٨٧٩ » .

وقال رحمه الله :

« وقد صاحبته من ابتداء شهر محرم سنة ١٢٨٨ هـ ١٨٧١ م وأخذت أتلقى عنه بعض العلوم الرياضية والحكمية (الفلسفية) والكلامية وأدعوا الناس إلى التلقى عنه كذلك ، وأخذ مشايخ الأزهر والجمهور من طلبته يتقولون عليه وعلينا الأقاويل ، بل ويزعمون أن تلقى تلك العلوم قد يفضى إلى زعزعة العقائد الصحيحة وقد يهوى بالنفس في ضلالات تحرمها خيري الدنيا والآخرة ! ! »

مضى قول الأستاذ الإمام في نصف أهالى مصر قبل سنة ١٨٧٦^(١) ووقفنا منه عند قوله :

« وبينما الناس على هذا . . . إذ عرض أمر قلما يلتفت إليه . . . » ووعدنا بأن نتم الكلام هنا فهناك هذه التتمة ، قال الأستاذ الإمام :

= رست أبالي أن يقال محمد
ولكنه دين أردت صلاحه
أهل أو اكتنظت عليه المآثم
أحاذر أن تقضى عليه المهائم

وكان التفاهم بين السيد وبين شيوخ الأزهر لا سبيل إليه ولا حيلة فيه ، وقد قال أديب إسحاق في تأبين السيد إنه جرت بين السيد وبين بعض علماء الأزهر مناظرة أفضت إلى المنافرة فانقطع إلى منزله وصار له فيه حلقة تدريس يحضرها كثير من الطلبة بل من المدرسين إلخ .

« جرت سنة الله في خلقه بأن عظام الأمور تتولد من صغارها ، كما أن ضخام الأشجار تبسق من جذورها ... »

جاء إلى هذه الديار في سنة ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩ م) رجل غريب بصير في الدين عارف بأحوال الأمم ، واسع الاطلاع جم المعارف جرىء القلب وهو المعروف بالسيد جمال الدين الأفغاني ، وركن إلى الإقامة في مصر فتعرف إليه في بادئ الأمر بعض طلبة العلم ثم اختلف إليه كثير من الموظفين والأعيان ثم انتشر عنه ما تخالفت آراء الناس فيه من أفكار وعقائد ، فكان ذلك داعياً لطلب الاجتماع به لتعرف ما عنده ثم اشتغل بالتدريس ببعض العلوم العقلية ، وكان يحضر دروسه كثير من طلبة العلم ويتردد على مجالسه كثير من العلماء وغيرهم ، وهو في جميع أوقات اجتماعه مع الناس لا يسأم من الكلام فيما ينير العقل ، أو يظهر العقيدة ، أو يذهب بالنفس إلى معالي الأمور ، أو يستلفت الفكر إلى النظر من الشؤون العامة مما يمس مصلحة البلاد وسكانها ، وكان طلبة العلم يتقانون بما يكتبونه في تلك المعارف إلى بلادهم أيام البطالة والزائرون يذهبون بما ينالونه إلى أحيائهم ، فاستيقظت مشاعر ، وانتبهت عقول وخف حجاب الغفلة في أطراف متعددة في البلاد خصوصاً في القاهرة .

كل ذلك والحاكم القوي في علوم مكانه ، أرفع من أن يناله هذا الشعاع في ضعف شأنه . ولا زال هذا الشعاع يقوى بالتدريج البطيء وينتشر في الأنحاء على غير نظام إلى أن نشبت الحرب بين الدولة العثمانية ودولة روسيا سنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦ م) حتى وجد الناس من أنفسهم لذة في الاطلاع على ما يكون من شأن الدولة العثمانية صاحبة السيادة عليهم مع دولة روسيا . .

وكثرة الأجانب في هذه البلاد سهلت ورود الجرائد الأوروبية . . ومخالطتهم للعامة والخاصة مهدت الطريق إلى العلم بما فيها ، فزاد تشوق الناس إلى الوقوف على حوادث تلك الحرب ، وسرى هذا الشعور إلى بعض الجرائد العربية التي كانت لا تزال إلى هذا العهد قاصرة على ما لديهم . فانطلقت في إيراد

الحوادث ونشرها . . وحدث بين العامة نوع من الجدل لم يكن معروفاً من قبل ، ثم استحدثت جرائد كثيرة لمجاعة ما سبقها في نشر الأخبار ومناوأتها في المشرب ، وقضى سلطان الوقت على سلطان الإرادة القاهرة .

لم يكن ما ينشر في الجرائد محصوراً في حوادث الحرب ، بل اجترأ الكثير منها على نشر ما عليه سائر الأمم في سيرتهم السياسية والمعاشية ، وزادوا على ذلك نشر ما كان قد بدا في الحكومة المصرية من سوء الأحوال المالية ، وأخذ الشيخ جمال الدين في حمل من يحضر مجلسه من أهل العلم وأرباب الأقاليم على التحرير وأنشأ الفصول الأدبية والعلمية في مواضع مختلفة لا تخرج جامعتها عن إصلاح الأفكار ، وتهذيب الأخلاق فتسابقت إلى ذلك الكتاب وتبارت الأقاليم ، وأخذت الحرية الفكرية تظهر في الجرائد إلى درجة يظن الناظر فيها أنه في عالم خيال ، أو في أرض غير أرض الحبال .

ومن يطلع على أعداد جريدة مصر. وجريدة التجارة وجريدة مرآة الشرق ، والأهرام وصددها يرى حقيقة ما ذكرناه .
وهذه الجرائد الثلاث الأولى كان السيد جمال الدين هو الموعز بإنشائها ، والسبب في ظهورها ، وكان السيد ينشر كذلك مقالاته في جريدة الأهرام .
وكان في كل ما يكتب يوقع باسمه الصريح وأحياناً باسم (مظهر بن وضاح).
وقال الكاتب الكبير تشارلز آدمي في كتابه « الإسلام والتجديد في مصر » ما نختصره هنا^(١) :

« لم ينشأ الدافع الأول إلى حركة الإصلاح في مصر نفسها ، بل كان صدى تعاليم السيد جمال الدين الأفغاني وأثراً من آثاره ، وكان جمال الدين الممثل النابه لفكرة الجامعة الإسلامية ، والمدافع القوى الشكيمة عن الإصلاح الشامل في الإسلام ، وكذلك كان العامل الجوهرى الأول في إحياء حركة التجديد في مصر .

« وكانت عناصر التحرر التي نشر لواءها جمال الدين في مصر وقوى سلطانها في البلاد ، تتوسم لإنفاذ إصلاحات عظيمة على يدي توفيق ، ويظهر أنه قبل ارتقائه إلى العرش كان قد عاهد جمال الدين وخاصته على أنه إذا آل إليه الأمر أيدهم في جهودهم الإصلاحية ، ولكنه لم يكدهم يرتقى العرش حتى أصدر أمره بنفى جمال الدين !

ويمكن أن نعدّ الثورة العربية من آثاره في سنة ١٨٨٢ كانت حركة الشباب المصريين التي نماها جمال الدين قد انتهت إلى الثورة العربية وعندما كانت الثورة قائمة في مصر على قدم وساق ، دعت حكومة الهند من حيدرآباد وألزمتها بالإقامة في كلكتا وأقامت عليه الرقابة .

وقال المستشرق الألماني الكبير كارل بروكلمان في كتاب تاريخ الشعوب الإسلامية تحت عنوان (١) :

« حركة التجديد الديني — جمال الدين الأفغاني » :

« مهما يكن من أمر فقد كان الإسلام ، ولا يزال هو المهيمن على الحياة الدينية في مصر ، وإنما يرجع الفضل في ذلك — في المحل الأول — إلى تأثير جمال الدين . . .

ولما انتقل من إستانبول إلى القاهرة ، استقبل استقبالاً حاراً ، وهنا نشط في حرية ومن غير أن تكون له صفة رسمية حتى الثورة العربية ، وبعث في نفوس الشبان المصريين الأمل في التحرر من السيادة الأوروبية ، إذا ما اقتبسوا ثقافة الغرب المادية ومناهجه العلمية ابتغاء الدفاع عن الإسلام بوصفه ديناً أكثر إيماناً في مضمار الرقي .

محفل الماسون

ومن أعماله بمصر أن أنشأ محفلاً ماسونياً كبيراً ضم حوالي ٣٠٠ عضواً من صفوة رجال مصر وقد عظم شأن هذا المحفل حتى إن توفيق (باشا) - وكان يوم أن أنشئ هذا المحفل - ولياً للعهد ، طلب أن ينضم إليه .

وقد استحدث له السيد نظاماً لا نظير له في المحافل الماسونية الأخرى ذلك أن جعل منه شعباً متعددة قسمها على نظارات (وزارات) الحكومة فجعل لكل وزارة شعبة خاصة تسعى في قضاء أمور الناس بها وتعمل على إنصاف المظلوم من أعمالها .

وكان السيد أول من طالب الحكومة بمساواة الضباط المصريين بالضباط الشركسة في جميع الحقوق من حيث المرتب والترقية والعمل والاختصاص وكان بينهم تفاوت كبير يومئذ فهو قد سبق عرابي في هذا الأمر .

ويطول بنا الأمر لو أردنا أن نفصل عمل جمال الدين بمصر أو جهاده في سبيلها وقد صدق في كلمته المؤثرة التي قال فيها :

« وعزة الحق ^(١) إن ما كتبتة عن حق مصر ، وما استهضت من الهمم ، وما حذرت به من سوء المصير ، لو تلى على الأموات لتحركت أرواحهم ، ولرفرفت على أجدائهم ، ولأحدثت لأعدائهم أحلاماً مزعجة ، ومرأى مروعة» .

كاد أن لا يخلو سطر من العروة الوثقى ، إلا وفيه ذكر « مصر » ولا يراهين وأدلة على ظلم الإنجليز إلا ويتمثل في « مصر » ، ولا خوف من شر مستطير يفكك ^(٢) أجزاء السلطنة العثمانية إلا ونراه من التهاون في أمر « مصر » .

(١) كانت يمين السيد دائماً هذا القسم « وعزة الحق » وكان يضيف إليه في بعض الأحيان هذا القسم الآخر « وسر العدل » .

(٢) وقد تم هذا التفكك والحمد لله وأصبحت تركيا لا تحكم إلا بلاد الترك وحدها .

ذلك لأن جرح مصر كان ولم يزل له في جسم الأمة الإسلامية - والعرب
عموماً - نَفْوَلاً - وبعروقها اتصالاً .

ولا يتفوتن أهل الشرق العلم ، بأن كل مدينة وكل مقاطعة إسلامية شرقية
هي بمنزلة « مصر » وإن لم تسقط تحت حكم أهل المطامع اليوم ؛ فالشراك لها
منصوبة ، والسقوط « والعباد بالله » قريب ! إلا إذا نشطت العقول وعمل أوامر العزائم ،
ولت الأمم الشرقية شعنها ، ووحدت كلمتها ، وطلبت حفظ ملكها بأسبابه ،
وعزة الحرية والاستقلال بمؤهلاتها .

ما قرعت أذان المسلمين - والشرقيين عموماً - بالحجج القاطعة ، وهتكت
أستار الظالمين بالبراهين الساطعة ، وأظهرت فظائع حكمهم بمن حكموا محسوساً
إلا لأقرب البعيد من زمن الاستعباد ، وأقصر طيات المسافة في الذل والمهانة
لمن لم يسقط بعد من المقاطعات الشرقية ، وله من الزمن ما يؤجل معه سقوطه ،
ويلم شعثه ، ويمد بعضهم لبعض يداً ؛ عسى أن تكون يد الله فوق أيديهم (١) .

و - أثره في باريس

عرف من تاريخ السيد جمال الدين أنه في سياحاته إلى أوربة قضى في
باريس بضع سنين وأنه قام وهو في هذه المدينة بعملين جليلين - غير ما كان
ينشره في الصحف ويلقيه من أحاديث - بقى أثرهما ظاهراً على وجه الدهر .

أحدهما : مقابلته للفيلسوف الكبير أرنتست رينان ، ومساجلته إياه ، وتعريفه
بحقيقة الدين الإسلامي وأنه دين ، ينصر العلم ويمقت الحمود ، لا كما يفهمه
كثير من علماء أوربة ، كان منهم - رينان - من أنه علو العلم وحليف
الحمود .

وثانيهما : إنشاء صحيفة « العروة الوثقى » .

ولا بد أن نسوق كلمة صغيرة عن هذين العاملين العظيمين :

جمال الدين ورينان

كان السيد جمال الدين في باريس منذ أول سنة ١٨٨٣ وهناك لقي الفيلسوف «رينان» ويذكر رينان هذا اللقاء في كتاب له مؤرخ له ١٨ مايو سنة ١٨٨٣ إذ يقول :

« لقد تعرفت بالشيخ جمال الدين منذ نحو شهرين فوقع في نفسي منه ما لم يقع إلا من القليلين ، وأثر في تأثيراً قوياً وجرى بيننا حديث عقدت من أجله النية على أن تكون علاقة العلم بالإسلام ، موضوع محاضرة في السربون ، والشيخ جمال الدين خير دليل يمكن أن نسوقه على تلك النظرية العظيمة التي أعلنها وهي النظرية القائلة : بأن قيمة الأديان بقيمة الأجناس التي تعتنقها ، وقد خيل إلى من حرية فكره ، ونبالة شيمه وصراحته ، وأنا أتحدث إليه ، أنني أرى وجهاً لوجه : أحد من عرفهم من القدماء ، وأنى أشهد ابن سينا أو ابن رشد ، أو أحداً من أولئك الملحددين العظام ! ! الذين ظلوا يعملون خمسة قرون على تحرير الإنسانية من الإيسار . »

وقد ألقى «رينان» محاضراته التي وعد بها وموضوعها «الإسلام والعلم» في السربون في ٢٩ مارس سنة ١٨٨٣ وكان لها أثر بعيد في الشرق والغرب جميعاً . وقد شملت محاضرة مسيو «رينان» - كما جاء في رد جمال الدين نقطتين أساسيتين :

فقد حاول المفكر العظيم أن يبرهن على أن الديانة الإسلامية كانت - بما لها من نشأة خاصة - تناهض العلم ، وأن الأمة العربية غير صالحة - بطبيعتها - لعلوم ما وراء الطبيعة .

(١) رجعنا في هذا البحث إلى المحاضرة التي ألقاها الأستاذ الجليل الشيخ مصطفى عبد الرازق رحمه الله في دار الجامعة المصرية يوم ٢٠ مارس سنة ١٩٢٣ عن الفيلسوف رينان وجمال الدين . وقد نشرت بجريدة السياسة بالمعدين ١٢٣ و ١٢٤ الصادرين في يومي ٢١ و ٢٢ مارس سنة ١٩٢٣ بمحاضرة طويلة وقيمة لمن يرجع إليها .

وقد قال جمال الدين في رده :

« يظهر أن المسيو رينان يقول : إن هذه النية الصالحة ذبلت في أيدي المسلمين كما يذبل النبات تلفحه الصحراء الساخنة .

وإن المرء ليتساءل - بعد أن يقرأ المحاضرة عن آخرها - أصدر هذا الشر عن الديانة الإسلامية نفسها ، أم منشؤه الصورة التي انتشرت بها الديانة الإسلامية في العالم ؟ أم أن اختلاف الشعوب التي اعتنقت هذا الدين ، أو حُملت على اعتناقه بالقوة ، وعاداتها ومواهبها الطبيعية هي جميعاً مصدر ذلك !

ولا ريب أن قصر الوقت المخصص للمسيو رينان قد حال دون إجلائه هذه النقطة . . . » وتعرض السيد بعد ذلك للكلام على نقطتي المحاضرة فيبين عند الكلام على النقطة الأولى :

« إن الدين لم يكن عنه مناص في سوق الأمم عند نشأتها إلى كمالها . وإن كل أمة - إبان نشأتها - لا تكون قادرة على أن تسترشد بالعقل الصافي ، إذ تتناها تصورات مفزعة لا قبل لها بالتخلص منها » .

ثم بين حاجة الأمم إلى الأديان فقال :

« إن الأمم جميعاً إنما شبت عن طوق الهمجية وخرجت إلى ما هو راق من مراتب المدنية بتلك التعاليم الدينية ، إسلامية كانت أو مسيحية ، أو وثنية » .

ثم أخذ السيد يتكلم عن النقطة الثانية فقال منافحاً عن العرب ما ملخصه :

صحيح أن العرب أخذوا عن اليونان فلسفتهم ، كما أخذوا عن الفرس ما كان شهرتهم في القدم ، لكن هذه العلوم التي أخذوها بحق الفتح قد رقوها ووسعوا نطاقها ، ووضحوها وبلغوا فيها مرتبة الكمال ، ونسقوها تنسيقاً منطقياً يدل على سلامة النوق ، وينطوي على الثبوت والدقة النادرين . وقد كان الفرنسيون والألمان والإنجليز لا يبعدون عن رومة وبيزانطة بُعد العرب عنهما - وهم الذين كانت عاصمتهم بغداد - وكان من السهل عليهم أن يستغلوا كنوز العلوم التي كانت

مدفونة في تينك المدينتين العظيمتين ، ولكنهم لم يفعلوا حتى جاء اليوم الذي ظهر فيه منار المدينة العربية على قمة البرانيس يرسل ضوءه وبهائه على الغرب ، وأحسن الأوربيون إذ ذاك استقبال أرسطاطاليس بعد أن تمصص الصورة العربية ، ولم يكونوا يفكرون فيه وهو في ثوبه اليوناني على مقربة منهم .

إلى أن قال : وإن العرب لما احتلوا إسبانيا وبلاد الأندلس لم يفقدوا جنسيتهم بل ظلوا عرباً .

ونخم جمال الدين رده بقوله :

ولن يقف القتال بين العقيدة والبحث الحر ، أو بين الدين والفلسفة ما دامت الإنسانية على قيد الحياة ، وهو قتال عنيف أخشى أن لا يكون التصرف فيه للفكر الحر ، لأن العقل لا يوافق الجماهير ، وتعاليمه لا يفقهها إلا نخبة من المتنورين ، والعلم — على ما به من جمال — لا يرضى الإنسانية كل الرضا ، وهي التي تتعطش إلى المثل الأعلى ، وتهوى التحليق في الآفاق المظلمة السحيقة التي لا قبل للفلاسفة والعلماء برويتها أو ارتيادها .

رد رينان على جمال الدين

وبعد ذلك رد رينان على السيد جمال الدين بقول ملوه بالمجاملة ، والاعتذار عن بعض الملاحظات وتأييد رأيه في بعض الموضوعات .

وإنا نجتري من هذا الرد بما يلي :

« ولست أرى في البحث النفيس الذي عاجله الشيخ إلا نقطة يصح أن نختلف فيها حقاً ، فالشيخ لا يعترف بالفروق التي يحملنا عليها النقاد والتاريخيون حيال العظمة المركبة التي يطلقون عليها كلمة دول وفتوحات .

لقد خالني الشيخ غير منصف في أني لم أوف الكلام حقه ، ولم أطل القول في الفكرة القائلة بأن الأديان جميعاً خصيمة للعلم ، وأن المسيحية في هذا لا تقل عن الإسلام . وهو قول لا يعنونه الشك .

وإذا كنت لم أطل القول في هذه النقطة فلأن آرائي في هذا الشأن معروفة ،
وأنا لم أقل إن المسلمين جميعاً بلا تمييز في الجنسية جهلة ، أو أنهم سيقون كذلك !
بل قلت إن الإسلام يضع في طريق العلم عقبات كبيرة . . .

إن واجب الهيئات الاجتماعية المتحضرة أن تجعل القاعدة العليا : أن حرية
الإنسان ومكانته فوق كل شيء ، وأن لا تهدم الأديان بل تعاملها معاملة
تنطوي على حسن النية فتعتبرها من إلهام الطبيعة الإنسانية .

وتختم رينان رده بقوله :

ويلوح لي أن الشيخ جمال الدين قد زودني بطائفة من الآراء الهامة تعينني
على نظرتي الأساسية وهي :

أن الإسلام في النصف الأول من وجوده لم يحل دون استقرار الحركة العلمية
في الأراضي الإسلامية ، ولكن في النصف الثاني خنت الحركة العلمية وهي في
حظيرته فكان هذا من سوء حظه . . . » .

جريدة العروة الوثقى

ذكر الأمير شكيب أرسلان أنه سمع الأستاذ الإمام محمد عبده يقول :
إن الأفكار في العروة الوثقى كلها للسيد جمال الدين ، ليس لي منها فكرة
واحدة أما العبارة كلها فإنها لي ليس للسيد منها كلمة واحدة .

أنشئت هذه الجريدة - كما قلنا - بباريس وصدر العدد الأول منها في
جمادى الأولى سنة ١٣٠١ هـ الموافق ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ م .

وكان مدير سياستها السيد جمال الدين الأفغاني ورئيس تحريرها الأستاذ
الإمام محمد عبده رحمهما الله وقد صدر منها ثمانية عشر عدداً في ثمانية
أشهر .

وكان آخر عدد صدر منها في ٢٦ ذى الحجة سنة ١٣٠١ هـ ١٧ أكتوبر
سنة ١٨٨٤ م .

منهج الجريدة

ولقد بينت الجريدة منهجها فقالت :

● ستأتى فى خدمة الشريقين على ما فى الإمكان من بيان الواجبات التى كان التفريط ، فيها موجبا للسقوط والضعف ، وتوضيح الطرق التى يجب ساوكها لتدارك ما فات ، والاحتراس من غوائل ما هو آت .

● ويستتبع ذلك البحث فى أصول الأسباب ، ومناشئ العلل التى قصرت بهم إلى جانب التفريط ، والبواعث التى دفعت إلى مهامه حيرة ، عميت فيها السبل ، واشتبهت بها المضارب وتاه فيها الخريت . وضل المرشد حتى لا يدري السالكون من أين تفجعهم الطوارق المفزعة والمزعجات المدهشة . والمدهشات القاتلة .

● وتكشف الغطاء — ما استطاعت — عن الشبه التى شغلت أوهام المترفين ، وليست عليهم مسالك الرشد ، وتزيح الوسوس التى أخذت بعقول المنعمين حتى أرزتهم اليأس من مداواة علائهم . وشفاء أدوائهم ، وظنوا أن زمان التدارك قد فات وأن العلة بلغت حدها .

● وتحاول إشراب الأفهام أن لا حاجة فى الوصول إلى نقطة الخلاص المرغوبة إلى قطع دائرة عظيمة تصورها بوجوب فتور المهم ، وانحطاط العزائم ، وأن تخيل تلك الدائرة الواسعة إنما عرض من الأدبار عن المطاوب وهو تحت الجرح ، ويكنى فى الوصول إليه عطفة نظر ، وقطع بضع خطوات قصيرة .

● وإن الظهور فى مظهر القوة لدفع الكوارث إنما يلزم له التمسك ببعض الأحوال التى كان عليها آباء الشريقين وأسلافهم ، وهى ما تمسكت به أعز دولة أوربية وأمنعها ، ولا ضرورة فى إيجاد المنعة ، إلى اجتماع الوسائط ، وسلوك المسالك التى جمعها وسلكتها بعض الدول الغربية الأخرى .

● وتنبه على أن التكافؤ فى القوى الذاتية والمكتسبة هو الحافظ للعلاقات والروابط السياسية ، فإن فقد التكافؤ تكن الرابطة إلا وسيلة التمرى لا ابتلاع الضعيف ،

وتجعل أهاب الوداد المرقش بألوان الملاطفة المديح بأشكال المجاملة شفافاً يتم عما وراءه ، وتنقب عن المسالك الدقيقة التي يسرى بها الطامعون في دياجير الغفلات .

• وتهم بدفع ما يُرمى به الشرقيون عموماً ، والمسلمون خصوصاً من التهم الباطلة التي يوجهها إليهم من لا خبرة له بحالهم ، ولا وقوف على حقائق أمورهم ، وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون إلى المدينة ما داموا على أصولهم التي فاز بها آباؤهم الأولون ، ولا تن في تبليغ الشرقيين ما يمسهم من حوادث السياسة العمومية ، وما يتداوله السياسيون في شئونهم مع اختيار الصادق ، واتقاء الثابت .

• وتراعى في جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الأمم ، وتمكين الألفة في أفرادها ، وتأييد المنافع المشتركة بينها ، والسياسات القويمة التي لا تميل إلى الحيف والإجحاف بحق الشرقيين .

• ومع كل هذا فهذه الجريدة تتبع سير الداعين إليها ، لا تظهر إذا أدلجوا ، ولا تنجد إذا أغرورا ، وتذهب مذاهب الرشد وتصيب بحول الله مواقعهم عند من سبق في أزلى علم الله هدايته . والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . وترسل إلى الذين تعرف أسماءهم مجاناً بدون مقابل . .

ز - جمال الدين أول شرقي اهتمت الجرائد الإنجليزية بكلامه ورعب الإنجليز من العروة الوثقى ومقاومتهم إياها لما استقرت قدما السيد جمال الدين في مصر سنة ١٨٧١ وأنشأ يربى التلاميذ والمريدين لإعدادهم للعمل السياسي والإصلاح الفكري ؛ كان أول ما نشره في جريدة مصر التي أنشأها بعض مريديه من السوريين مقالات عنوانها : « البيان في الإنجليز والأفغان » وصف فيها قومه الأفغانين بقوله :

« هذه الأمة المعروفة بعزة النفس ، وشدة البأس التي لم ترض الدخول تحت حماية الخضر^(١) المبتلى بجوع البقر ، والاستسقاء الذي لم يشبعه ابتلاع مثنى

مليون من النفوس^(١) ولم تروه مياه الكنج والتمس ، بل فغرفاه ليلتهم بقية العالم ، ويجرع مياه النيل ونهر جيحون » .

وكان من تأثير هذه المقالات أن ترجمتها بعض الجرائد الإنجليزية ، وأظهرت الإعجاب به وبها وردت عليها . . فكان أول كاتب شرق اهتمت الجرائد الإنجليزية بكلامه .

ولما عزم على إصدار جريدة العروة الوثقى حسب لها الإنجليز كل حساب لما يعلمونه من أثر السيد الفعال في السياسة الشرقية ، وخصوصاً المصرية ، فجهر بعض ساستهم بتحريض حكومتهم عليها حتى قبل صدورها .

وقد بين السيد ذلك في جريدة العروة الوثقى إذ كتب مقالاً طويلاً في العدد الخامس الذي صدر في ١٠ أبريل سنة ١٨٨٤ قال في ختامه :

« . . فلتعلم الحكومة الإنجليزية أننا لا يعجزنا بث أفكارنا في البلاد الشرقية سواء كان بهذه الجريدة أو بوسيلة أخرى . إذا دعا الحال فإن أنصار الحق كثيرون » .

مصادرة العروة الوثقى في جميع البلاد

وبعد أن ظهرت جريدة العروة الوثقى ضاق الإنجليز بها ذرعاً . فضيقوا الخناق عليها ، وسدوا جميع النوافذ في وجهها ، وفي مصر انعقد مجلس النظار وبعد أن بحث في أمرها أصدر قراره بأن تشتد نظارة الداخلية في منعها عن دخول الأقطار المصرية ، وأمرت إدارة البريد بمراقبة ذلك وأن كل من توجد عنده نسخة من هذه الجريدة يغرم مبلغاً من ٥ جنيهات إلى ٢٥ جنيهاً .

(١) يعنى أهل الهند - وهذا كان إحصائهم يومئذ أما اليوم فعددهم أكثر من ٣٠٠ مليون نسمة .

العروة الوثقى كانت تعمل للشرقيين عامة - لا للمسلمين خاصة
كان قد اشتبه على بعض الناس أمر اللهجة الإسلامية في العروة الوثقى ،
وظنوا أنها خاصة بالمسلمين ، فأزالت الجريدة هذه الشبهة بعبارة واضحة نشرت في
العدد الثامن الذي صدر منها في ١٥ مايو سنة ١٨٨٤ . وهذا نصها :
« لا يظن أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها للمسلمين بالذكر
أحياناً ومدافعها عن حقوقهم تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم في أوطانهم ،
ويتفق معهم في مصالح بلادهم ، ويشاركهم في المنافع من أجيال طويلة ؛
فليس هذا من شأننا ولا مما نميل إليه ، ولا يبيحه ديننا ، ولا تسمح به شريعتنا ؛
ولكن الغرض تحذير الشرقيين عموماً ، والمسلمين خصوصاً ، من تطاول الأجانب
عليهم والإفساد في بلادهم ، وقد تخص المسلمين بالخطاب لأنهم العنصر الغالب
في الأقطار التي غدر بها الأجنيون ، وأذلوا أهلها أجمعين ، واستأثروا بجميع
خيراتها . . . » .

٣ - المصلح الديني

١ - مذهبه الديني

قال الأستاذ الإمام : « أما مذهبه فحنيفي حنفي ، وهو وإن لم يكن في
عقيدته مقلداً لكنه لم يفارق السنة الصحيحة مع ميل إلى مذهب السادة الصوفية ،
وله مثابرة شديدة على أداء الفرائض على مذهبه .
أما حميته الدينية فهي مما لا يساويه فيها أحد ، يكاد يلتهب غيراً على الدين .
هذا ما ذكره الأستاذ عن شيخه ، ولكن السيد انتهى به الأمر إلى أن أصبح
مجتهداً لا يقلد مذهباً من المذاهب .

وليك ما قاله عنه صديقه الحميم مستر بلانت :

« وكان يوحى الشجاعة بجرأته ، وينقد المذاهب المسلم بها حتى مفهوب
أبي حنيفة (أى الذى كان يتبعه فى أول حياته) فيقبل الناس نقده بما لم يكن
أن يتيسر لرجل غيره » .

ب - إصلاحه الدينى

وكان همه أن يطلق العقول من الأغلال التى قيدتها طول الأجيال الماضية
ويقيم الحجة على أن الدين ليس شيئاً ميتاً ، ولكنه نظام يصلح الإنسانية المتطورة
فى جميع العصور فهو لا يأبى التطور .

ج - غاية

تكلم الدكتور تشارلز آدمس عن الغاية التى كان يرى إليها السيد فقال (١) :
« كانت الغاية التى يرى إليها جمال الدين ، والغرض الأول فى جميع جهوده
التى لا تعرف الكلل ، ومن إثارته للنفوس وتبهيجه المتواصل للناس . توحيد كلمة
الإسلام ، وجمع شمل المسلمين فى سائر أقطار العالم ، كما كانت الحال أيام
الإسلام المحيية ، وعصره الذهبى ، وقبل أن توهن منه الفرقة والانقسام . وقد
باتت أقطار المسلمين غارقة فى وهدة الجهل واليأس فأصبحت فريسة للاعتداء
الأوربى ، وقد آلمه أشد الألم أن يرى الأمم الإسلامية يضعف أمرها وترث قواها ،
وكان يعتمد أن الأمم الإسلامية لو رفضت عن نفسها كابوس الاحتلال الأجنبى
وتحررت من تدخل الدول الأجنبية فى شؤونها وصلح حال الإسلام وتوافق مع
مقتضيات الحياة فى العصر الحاضر لأصبح المسلمون قادرين على تدبير أمورهم
تدبيراً حسناً دون أن يعتمدوا على الأمم الأوربية ويصطنعوا وسائلها ، وكان يرى
أن الإسلام فى جميع مسأله الجهورية دين عام للعالم أجمع قادر بما فيه من قوة
روحية على ملاءمة الظروف المتغيرة فى كل جيل » .

وقال المستشرق الألمانى الكبير كارل بروكلمان فى كتاب « تاريخ الشعوب

الإسلامية » مثل هذا كما تقدم ونعيد هنا ما قاله تحت عنوان :

(١) ص ١٤ و ١٥ من (كتاب الإسلام والتجديد فى مصر) .

« حركة التجديد الديني - جمال الدين الأفغاني » (١) :

« مهما يكن من أمر فقد كان الإسلام - ولا يزال - هو المهيمن على الحياة الدينية في مصر ، وإنما يرجع الفضل في ذلك - في الحقل الأول - إلى تأثير جمال الدين .

ولما انتقل إلى القاهرة استقبل استقبالاً حاراً - وقد بعث في نفوس الشبان المصريين الأمل في التحرر من السيادة الأوربية - إذا ما اقتبسوا ثقافة الغرب المادية ومناهجه العالية ابتغاء الدفاع عن الإسلام بوصفه ديناً أكثر إمعاناً في مضمار الرقي » .

د - باعث الروح العصرية في الإسلام

ولما تكلم مسرّ بلانت عن حركات الإصلاح الإسلامي قال : إنها انحصرت قبل ظهور جمال الدين في التفهقر القديم ولم تسر في طريق التطور ؛ وجاء في القرنين الأخيرين كثير من الواعظين ووجد كذلك في مصر وتركيا ، مصلحون ، ولكنهم لم يوفقوا بين إصلاحاتهم وبين قواعد القرآن وتقاليده ثم قال :

« أما نبوغ جمال الدين في اجتهاده في حمل الممالك التي وعظ فيها على أن تعيد النظر في الموقف الإسلامي كله ، وأن تستبدل بالتسك بالقديم المتحرك إلى الأمام حركات أدبية منسجمة مع العالم العصري ، وقد مكّنه علمه التام بالقرآن والسنة ، من إقامة الحججة على أنهما ، أو أحسن تأويليهما معا - لكان الإسلام كفيلاً لإحداث تطور راق عظيم .

وقال مؤلفو تاريخ العرب المطول (٢) :

ويعد جمال الدين الباعث الرئيسي الأول للروح العصرية في الإسلام .

(١) ص ١٠٢ و ١٠٣ ج ٤ .

(٢) ص ٨٨٧ و ٨٨٨ .

وقال الكاتب الكندي الكبير وليام مكلورى فى كتابه « حركات التنوير فى الشرق الأوسط » :

« وكانت أقوى مشاعل حركة التنوير القومى والفكرى فى الشرق ؛ هى التى حملها جمال الدين الأفغانى ، الذى تخرج على يديه ومن مجالسه الكثيرون من أبناء مصر والبلاد العربية . »

وقال الأستاذ الإمام محمد عبده إن شيخه عندما جاء إلى مصر « وجه عنايته لحل عقل الأوهام عن قوائم العقول ، فنشطت لذلك أبواب واستضاءت بصائر . »
 « وإنه فى جميع أوقات اجتماعه مع الناس ، لا يسأم من الكلام فيما ينير العقل ، أو يطهر العقيدة ، أو يذهب بالنفس إلى معالى الأمور ، أو يستلفت الفكر إلى النظر فى الشؤون العامة مما يمس مصلحة البلاد وسكانها ؛ فاستيقظت مشاعر وانتبهت عقول وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة فى البلاد خصوصاً فى القاهرة . »

هـ - تساميه عن التعصب

قال الأستاذ الكبير مصطفى عبد الرازق :

« لقد تسامى السيد جمال الدين عن كل معانى التعصب لفرق من فرق المسلمين ، بل هو قد تسامى عن كل معانى التعصب الضيق الذى يلقى بين الناس إحناً وعداوات ، وإذا كان السيد جمال الدين قد أثار فى الشرق عاطفة التذمر من الغرب فما ذاك إلا لأنه كان عدواً للظلم كله ، وكان يحارب فى الشرق ظلم الظالمين ، وكان يريد للشرقيين أن لا يتحملوا من الغرب ظلماً ولا هضمًا . »

و - التوفيق بين أهل السنة والشيعة

وقال آدمس :

« وكانت جهوده فى عقد أواصر الألفة والوحدة بين أهل السنة والشيعة ،

تعتمد على التوفيق الودى وعلى التسامح ، ولهذا خطره السياسى ، مع دلالاته على روح التسامح الدينى الذى كان يدرك ضرورته لرأب الصدع ، ولم الشمل والقضاء على الفرقة التى قدم عهداها فى العالم الإسلامى .

٤ - الزعيم السياسى

١ - مقصده

عبر الأستاذ الامام محمد عبده وهو أول من يعرف أغراض أستاذه عن مقصد شيخه السياسى فقال :

« أما مقصده السياسى الذى وجه إليه أفكاره ، وأخذ على نفسه السعى إليه مدة حياته ، وكل ما أصابه من البلاء أصابه فى سبيله ، فهو إنهاض دولة إسلامية من ضعفها وتبنيها للقيام على شؤونها ، حتى تلحق الأمة بالأمم العزيزة ، والدولة بالدول القوية ، فيعود للإسلام شأنه ، وللدين الحنيفى مجده . ويدخل فى هذا تنكيس دولة بريطانيا فى الأقطار الشرقية ، وتقليص ظلها عن رؤوس الطوائف الإسلامية -- وله فى عداوة الإنجليز شئون يطول بيانها . »

ولم يكن السيد وهو الفيلسوف الحكيم الذى يعرف طبائع العمران ونظم الاجتماع ، ليقصد دولة من الدول الإسلامية تضم العالم الإسلامى كله تحت ظلها ، لأن هذا وهو فى نفسه مستحيل ، فإنه يوجد ضغائن وإحن لا تنهى بين هذه الدولة التى تجمع العالم الإسلامى تحت راية واحدة ، وبين دول الغرب مما ينشأ بينهما من العصبية الدينية المقوتة التى لا بد منها فى مثل هذه الحالة .

ولهذا صرح السيد وهو فى معرض تنبيه المسلمين وحثهم على الوحدة بقوله :

« لا أتمس بقولى هذا أن يكون مالك الأمر فى الجميع شخصاً واحداً ، فإن هذا ربما كان عسيرا ولكنى أرجو أن يكون سلطان جميعهم (القرآن) ، ووجهة

وحدثهم الدين ، وكل ذى ملك على ملكه يسعى جهده لحفظ الآخر ما استطاع ،
فإن حياته بحياته وبقائه ببقائه » (١) .

ب - وسائله لتحقيق غاياته

اتخذ السيد جمال الدين طوال حياته - لتحقيق غاياته - « وسائل الثورة السياسية » وكانت هذه الوسائل هي ما يتفق مع مزاجه ، وقد ظن أنها أسرع الطرق للوصول إلى ما يبتغيه من تحرير الشعوب الإسلامية من نير المستعمرين في أقرب وقت ، حتى إذا ما تحررت هذه الشعوب واستمتمت بالحرية ، أمكنها تنظيم شؤونها .

وكان من رأيه أن الإصلاح التدريجي ببطيء الخطى .

وكان الأستاذ الإمام محمد عبده - وهو تلميذ السيد الأكبر ، والذي شاركه في جهاده بمصر وباريس - على غير ذلك : فقد كان يرى أن اليقظة الفكرية والدينية هما السبيل إلى تحقيق أغراض الأمم الإسلامية .

ومما لا ريب فيه أن السيد وتلميذه قد كان لهما الفضل في تمزيق ثوب المحافظة والرجعية التي التحف بها الإسلام منذ العصور الوسطى .

ج - مفاوضات الإنجليز معه في أمر السودان

لما ظهر أمر محمد أحمد السوداني - الذي ادعى المهديية - وأخذ يستفحل أمره ، اتخذ الإنجليز من تلك الحادثة ذريعة للتدخل في شؤون مصر بحجة قمع ثورة المهدي السوداني (٢) فكتب السيد جمال الدين في العروة الوثقى مقالات شديدة يحذر الإنجليز فيها عملهم ، ويلفت نظر كبير وزرائهم حينئذ (مستر غلادستون) إلى سوء مصير الجنرال غردون (٣) وأن نجاح الإنجليز في الشرق لا يكون بهذه

(١) العروة الوثقى .

(٢) كانت مصر والسودان حينئذ أمة واحدة .

(٣) كان غردون قائد جيوش الإنجليز في السودان .

الوسيلة ، وأثبت ذلك كله بأدلة قاطعة .

ولما اشتدت حملات السيد في مسألة السودان اهتم بها رجال السياسة في العالم وأقضت مضاجع كبار الإنجليز - حتى اضطرت اللورد (ساليسبورى) و (تشرشل) أن يستدعيا جمال الدين ليأخذ رأيه في أمر المهدي وظهوره ، فسافر إلى لندن واجتمع بهما وبين لهما سوء المصير من اتهاج سياسة الإنجليز في مصر والسودان ، وموضع خطأ هذه السياسة نحو دول الإسلام في الشرق عامة . وبعد أخذ ورد في الحديث مع السيد اختصر اللورد ساليسبورى الكلام فقال للسيد :

إن بريطانيا تعلم مقدرتك ، ونحن نقدر رأيك قدره ، ونحب أن نسير مع حكومات الإسلام بمودة وولاء على قدر ما تسمح لنا به الظروف والأحوال ، لذلك عولنا على أن نرسلك إلى السودان سلطاناً عليه لتستأصل جذور فتنة المهدي وتمهد السبيل لإصلاحات بريطانيا فيه .

فأجابه جمال الدين بقوله : تكليف غريب ، وسفه في السياسة . ما بعده سفه !

« اسمح لى يا حضرة اللورد أن أسألك ، هل تملكون السودان حتى تريدوا أن تبعثوا إليه بسلطان ؟ مصر للمصريين ، والسودان جزء متمم لها (١) ، وصاحب الحق الخليفة الأعظم جلاله السلطان (٢) حتى يرزق ، ولديه من القوة ما يدلل به كل صعب وفتنة . »

ثم استطرد يقول :

« إن الإصلاح وما تنويه بريطانيا من عمله وطرق إدخاله ، وما تبحث له

(١) هذا هو الحق الذى لا ريب فيه .

(٢) كانت مصر حينئذ تابعة للدولة التركية ومن كان يقول بغير ذلك تبطله السجون أو يكون خارجاً على السلطان .

من الوسائل فعلى سبيل الاستطراد ، والتطفل ، ألفت نظرها ونظر كبير رجالها حضرة اللورد إلى - إيرلندا ، وما تعانیه من ضروب البلاء فيما تنشده لنفسها من طلب الاستقلال ، ليتسنى لها معه الإصلاح الحقيقي لبلادهم ! فلماذا لا تجيبون سؤالهم وتصلحون أمرهم ؟ وهم أقرب إليكم من جبل الوريد ، وبينكم من الصلات ما هو معدوم لكم في مصر والسودان وغيرهما من ممالك الشرق .

نبتت عند ذلك اللورد ساليسبورى وفوجئ بصدمة لم تكن في حسابانه ، ولم يجر جوابا ؛ إذ كان ينتظر من السيد سجود الشكر لسلطان عظيم أتاه بدون تعب . وقال للسيد كلاماً معناه - سننظر في الأمر وودعه بقوله ، مصحوب بالسلامة . وقد أهتمت الجرائد الإنجليزية بهذه المقابلة وما جرى فيها خصوصاً ما كان منها موالياً لقضية الأيرلنديين من الإنجليز الأحرار .

ولم يخرج السيد من لندن إلا كانت أندية السياسية تضج بالحديث عما أجاب به السيد كبير وزراء الإنجليز ، وكيف يخاطب شرقاً ! وزيراً عظيماً بمثل هذه اللهجة التي لم تكن معروفة من أى شرق قبله .

وقد كان السيد جمال الدين يعتبر - بحق - أن السودان جزء متمم لمصر .

٥ - الفيلسوف الحكيم

١ - مذهبه الفلسفي

. . كان المحيط العلمى الذى يتمثل فى خراسان (أفغانستان) ، وبخترنستان وشمال الهند من القرن السابع عشر حتى أيام السيد - أكثر ازدهاماً وازدهاراً بالعلم والحكمة والفلسفة من أى قطر آخر من الممالك الإسلامية ، ولا سيما فى المنطق والفلسفة والكلام . .

وحدث تطور كبير فى المناهج المدرسية فى تلك القرون الثلاثة الأخيرة فكان علم الكلام محشواً بالفلسفة ، والفلسفة مشوبة بالتصوف « الوحدة الوجودية » ووحدة الوجود كانت ملفقة بالأدب ، وهذا شئ يرى فى تلك المناطق ، ولا يرى

في البلاد العربية . وهذه النزعة في الدراسة قد بدأ بها أبو علي بن سينا في آخر كتابه المعروف بالإشارات ، واتبعه في هذا السلوك جلال الدين الدواني والشيخ شهاب الدين السهروردي وملاً صدرا ومحمد جرنفوري وكثيرون من أمثالهم فهؤلاء العلماء كانوا فلاسفة وكلاميين وصوفيين وأدباء .

فالسيد جمال الدين في بدء شبابه — كأى طالب أفغانى — كان من هذا القبيل ، تعلم الدين والفلسفة والتصوف والأدب ، وأتم تحصيل دراسته على أكمل وجه .

ولقد سمعت أن السيد تتلمذ على القاضى بشد والحافظ دراز وحبيب الله القندهارى . .

على أن السيد قد نهم بالعلم أشد النهمة ؛ فلم يقف عند هذا الحد ، بل جاهد كثيراً في سبيل الاطلاع على كل ما تبلغ إليه المدارس الفكرية (السياسية والفلسفية والعلمية الحديثة) .

وكل ما تعلمه السيد في المدرسة أو ألهمه من الآفاق ، أو طالعه في الكتب — كان ذلك كله إنما يدور حول الأمور الاجتماعية والسياسية — وهذا هو دأب الفلاسفة الأقدمين ، ذلك بأن هؤلاء الفلاسفة كانوا أول ما كانوا أخلاقيين يكشفون عن أخلاق الفرد والمجتمع . .

وكانت المسائل الاجتماعية عند السيد جمال الدين هي مستقر أو مصدر فكرته ، إلى حد أنه كان يحاول أن يجعلها مقياساً للأمور الطبيعية أيضاً كما فعل ذلك في رده على الدهريين .

ومع أن أساس تعاليم السيد جمال الدين الأساسية كانت يونانية (أرسطاطاليسية) — وهذا أساس مدارسنا في الشرق الإسلامى — والسيد في بعض الأحيان في رده على الدهريين يتشبه بالثناهي واللاتناهي ، وبالجوهر والعرض ، وبالجزء الذي لا يتجزأ — كما كان شأن أرسطو — ولكنه في غالب الأحيان ، يهجم على كل معسكر من الدهرية بنفس السلاح الذي استعملته المدرسة الحديثة — وهذا ما يعطيه صبغة

النوع والعبقرية بلا شك ولا نزاع .

فشخصية السيد الاجتماعية كانت كالمنظومة الشمسية في غاية النظام والإتقان وكانت كل مشاعره تدور حول مركز واحد - هو الأمور الاجتماعية أو « الأشياء الإنسانية » كما سماها أرسطو . .

وكان الهدف والغرض من (الأخلاق والسياسة) عنده هو « الكمال » بالمعنى الذى كان يفكر فيه الشيخ أبو على بن مسكويه وبالطريقة التى أشار إليها هيكل وكومت ، لا بالأصول التى ذهب إليها لامارك وداروين - وهو عبارة عن الانكشاف الروحى ، وتصعيد الغرائز والتخلق بأخلاق الله .

فالسيد فى تلك الناحية - كان صوفيًا . . .

ومن العجيب أن السيد كان مطلعاً على كل سناهج المدارس الفكرية والطبيعية والاجتماعية التى وجدت فى أوربا خلال القرن السابع عشر والثامن عشر ، حتى التى وجدت فى العصر الحاضر بروحها وجوهرها ومؤداها - وكان قد درس الطبيعيات والبيالوجيا والتاريخ الطبيعى الحديث والنشوء والارتقاء كما اطلع على ما تدرسه المدارس السياسية على اختلافها (الديموقراطية) والاشتراكية، والشيعوية ، وكان جرحه وتعديله ونقده ورده - بفكرة اجتماعية يبعثها الدين ويسيرها العقل ويتودها الكمال الإنسانى .

فالسيد كان فى دينه موحداً ، وفى سياسته داعياً بالوحدة ، وكان يربط بين أجزاء الكون بعقيدة وجود الله الذى هو أصل الوجود . ومنبع الشعور ، ومصدر الإرادة ، وهذه كانت فكرته الصوفية - وبهذه العقيدة كان يربط بين الروح والجسم والمادة والمعنى ، وبين النظام الطبيعى والنظام الأدبى .

فالصوفى بطريقة وحدة الوجود - التى كان السيد يسلكها - يرى الوجود الحقيقى فى الله سبحانه وتعالى ، ويرى المادة والقوة والشعور فى صفاته ، ويرى أن الكون مرآة لوجوده ، وأن أجزاء الكائنات مظاهر لأسمائه الحسنى ، فمن سعته كونت الطبيعة

ومن علمه - سبحانه - خلق الشعور - كما يقول سبنوذا . (والله واسع علم)^(١) -
ويروى عن السيد : أنه كان يحاول أن يحل مسألة الأقانيم الثلاثة عند المسيحيين
أعنى « الآب والابن وروح القدس » بنظرية وحدة الوجود بمعنى أن الثلاثة هي
بمثابة ثلاثة مظاهر لحقيقة واحدة ، كما كان سقراط^٢ يقول : إن الخير والحق
والجمال ، ثلاثة مظاهر للحقيقة ، ومن هذا يظهر أن السيد كان يحاول أن تتسع
الوحدة بين المسلمين والمسيحيين ، الأمتين اللتين كان بينهما عطف وصلة ،
وتعاون عريق منذ فجر الإسلام »^(٢) . .

ب - منزلته من العلم

قال الأستاذ الإمام محمد عبده يصف منزلته من العلم^(٣) :

« أما منزلته من العلم وغزارة المعارف فليس يحدها قلمي إلا بنوع من الإشارة
إليها .

لهذا الرجل سلطة على دقائق المعاني وتحديدها وإبرازها في صورها اللاتقة بها ،
كأن كل معنى قد خلق له ، وله قوة في حل ما يعضل منها كأنه سلطان شديد
البطش ، فنظرة منه تفكك عقدها ، كل موضوع يلقي إليه ، يدخل للبحث
فيه كأنه صنع يديه ، فيأتي على أطرافه ، ويحيط بجميع أكنافه ، ويكشف ستر
الغموض عنه فيظهر المستور منه ، وإذا تكلم في الفنون حكم فيها حكم الواضعين
لها ، ثم له في باب الشعريات قدرة على الاختراع ، كان ذهنه عالم الصنع والإبداع وله
لستن في الجدل وحذق في صناعة الحججة لا يلحقه فيهما أحد ، إلا أن يكون في
الناس من لا نعرفه ، وكفاك شاهداً على ذلك أنه ما خصم أحداً إلا خصمه ،
ولا جادله عالم إلا ألزمه .

وقد اعترف له الأوروبيون بذلك بعد ما أقر له الشرقيون - وبالجمالة فلإني

(١) هذه آية من القرآن .

(٢) هذه الصفحات مقتبسة من بحث نفيس بقلم العلامة الجليل الأستاذ صلاح الدين السلجوقي
سفير أفغانستان بالجمهورية العربية المتحدة .

(٣) ص ٢٤ من مقدمة رسالة الرد على الدهريين .

لو قلت: إن ما أتاه الله من قوة الذهن وسعة العقل ، ونفوذ البصيرة - هو أقصى ما قدر لغير الأنبياء، لكنك غير مبالغ ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وقال سليم عنحورى يصف مجلس علمه (١) :

كان يجلس في صدر فئة تتألف حوله على هيئة نصف دائرة ينتظم في سمطها اللغوى والشاعر والمنطقى والطبيب والكيمائى والتاريخى والجغرافى والمهندس والطبيعى ، فيتسابقون إلى إلقاء أدق المسائل عليه ، وبسط أعوص الأحاجى لديه ، فيحل عقد أشكالا فرداً فرداً، ويفتح أغلاق طلاسمها ورهوزها واحداً واحداً بلسان عربى مبين ، لا يتلعم ولا يتردد، بل يتدفق كالسيل من قريحة لا تعرف الكلال ، فيدهش السامعين ويفهم السائلين ويبكم المعترضين ، ولا يبرح هذا الشأن شأنه حتى يشتعل رأس الليل شيباً .

وقال عن طريقته في انشاء ما ينشى من المقالات :

وإذا رام إنشاء مقالة ألقى على كاتب من مثل إبراهيم اللقانى إلقاء قلما يراجع ويصلحه فيجىء من أول وهلة مسبوكاً مفرغ المعانى بقوالب لفظ لا تنقص عنها ولا تزيد ، فسبحان من خلقه بهذه الأطوار، وجمله بهذه الآثار ، إنه فعال لما يريد .

وقال فيه تلميذه أديب إسحاق :

ومن غرائب فضله أنه كان يتتبع حركات المعارف الأوربية ، والمستكشفات العصرية ، ويلم بما وضع أهل العلم وما اخترعوه جديداً حتى كأنه قرأ العلم في بعض مدارس أوربة العالية .

وقال الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد (٢) :

« برع في العلوم الغربية كما برع في علوم الشريعة ، وألم بكثير من دقائق

(١) في كتابه سحر هاروت .

(٢) عن محاضرة للعقاد بجمعية الشبان المسيحيين يوم ٨ فبراير ١٩٣٤ .

العلوم العقلية كما ألم بالعلوم الرياضية ، وتعلم إلى جانب هذا كله الفنون القديمة ، وأضاف إليها كل ما تسنى له الاطلاع عليه في اللغات التي كان يعرفها وهي الفارسية والعربية والتركية والإنجليزية والفرنسية – فاجتمع له حظ من العلم الغزير يزداد غزارة وإثماراً في لب خصيب مثل لبه ، وبداهة مشرقة مثل بدايته .

٦ - خاتمة

هذا هو أمر السيد جمال الدين ، وتلك هي حياته التي سقناها في الفصلين السابقين على وجه الاختصار ، والمنصف يرى في هذا الوجه المختصر مبلغ عظمة السيد جمال الدين ، وأنه كان في حياته علماً مفرداً لا يدانيه أحد في علمه ، ولا في إصلاحه – إذ لم يكن مصلحاً لأمة بعينها ، ولا إصلاحه في ناحية واحدة صرف جهوده إليها ، وإنما كان مصلحاً للشرق كله ، وفي نواح من الإصلاح متعددة دينية وفكرية واجتماعية وسياسية وقد صدق هو في قوله :

« الشرق ! الشرق ! لقد خصصت جهاز دماغى لتشخيص دائه ، وتحرى دوائه » .

ولكى لا نرمى بالمحابة أو المبالغة في وصف هذا العظيم – نأتي بصفحة كتبها مؤرخ العصر الحديث الأستاذ الكبير عبد الرحمن الراجحي ، بين فيها فضل جمال الدين ومدى الرسالة التي أداها قال حفظه الله :

« إن الأمم الشرقية جمعاء مدينة بنهضتها السياسية ، والفكرية إلى الزعيم الكبير ، والفيلسوف الشهير ، السيد جمال الدين الأفغانى .

ظل الشرق قرونا عديدة رازحاً تحت نير الجمود الفكرى ، والتأخر العلمى ، والاستعباد السياسى ، وبقي في سبات عميق ، إلى أن قبض الله له الحكيم الأفغانى (جمال الدين) فنفخ فيه روح اليقظة والحياة ، وأهاب بالنفوس أن تنهض وتحرك ، وبالعقول أن تستيقظ ، وبالأمم والجماعات أن تتطلع إلى الحرية ، فكانت رسالته إلى الشرق مبعث نهضته الحديثة .

وإذا أردنا أن نتبين في (كلمة عامة فضل جمال الدين ، ومدى الرسالة التي أداها ، فلنذكر أنه كان في حياته (مصلحاً دينياً) ، وفيلسوفاً حكماً ، وزعيماً سياسياً ، فجمع بين الزعامات الروحية والفكرية والسياسية واضطلع بها معاً .

فأدى من الناحية الدينية : مهمة الإصلاح والتجديد ، التي أدى مثلها مرتان
لوتر للمسيحية ، وأهاب بالأمم الإسلامية أن تفهم الإسلام على حقيقته ، وترجع إلى مبادئه الصحيحة ، وفطرته الأولى ، وتطهره من الأوهام والخرافات التي أفضت إلى تأخر المسلمين .

ومن الناحية الفكرية : أدى المهمة التي قام بها في أوروبا فلاسفة الفكر
أمثال : جان جاك روسو ومونتسكيو وغيرهما ، فعمل على إنارة البصائر ، وتوجيه الأفكار إلى البحث عن الحقائق ، وتحرير العقول من قيود الجمود والتقليد .

ومن الوجهة السياسية : استنهض الهمم ، واستثار في النفوس روح العزة
والكرامة والتطلع إلى الحرية ، وغرس بذور الحركات الوطنية في مختلف البلاد الشرقية ، وقام بمثل العمل الذي اضطلع به زعماء النهضة السياسية في الغرب كواشنطن وجار بيلدي ، ومازيني وكوش وغيرهم .

فالذي يجمع بين هذه المهام الجليلة ويضطلع بها معاً في عهد اشتد فيه ظلام الجهالة ، وتفرقت الكلمة ، وعزّ النصير ، وتشعبت الأهواء ، يجب أن يتسامى في قوة النفس والفكر والوجدان إلى مراتب العبقرية ، ويقيناً أن الأمم الشرقية لم تقدر حتى الآن حكيم الشرق حتى قدره ، ولا أدت له حقة من الوفاء والتكريم وسيظهر فضله على مر السنين (١) .